الحرف و الصناعات بالمغرب الإسلامي

تعتبر الحرف و الصناعات من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع الإسلامي لذلك أولاها المفكرون المسلمون جانبا من اهتماماتهم و عنايتهم و حاولوا تصنيفها و تبيان أنواعها وفق أسس متعددة و مختلفة و هذا ما نجده في رسائل إخوان الصفا – (ق4 ه/10م)و في كتاب - إحياء علوم الدين للغزالي (ت808 ه/1111م= و في مقدمة ابن خلدون – (ت 808 ه/ 1406م) .

و قد أشار ابن خلدون الى أمهات الصنائع و صنفها الى نوعين:

صنائع ضرورية في العمران كالفلاحة و البناء و الخياطة و التجارة و الحياكة و صنائع شريفة بالموضوع كالتوليد و الكتابة و الطب و ما سوى ذلك من الصنائع فتابعة ومتممة.

أنواع الصناعات

1**/ الحاكة و عمال الغزل و النسيج:**

ترتبط صناعة الغزل و النسيج الى حد كبير بمدى توافر المادة الخام الضرورية لذلك و مدى إمكانية المنطقة التي نحن بصدد دراستها في هذا المجال و تغطيتها للحاجات المحلية، و رواج هذه المواد داخل البلاد و خارجها بالإضافة الى معرفتهم بالجانب التقني الذي يهتم بمعالجة المادة الخام و مراكز تصنيعها ، لاسيما و أن هذه المواد إما ذات أصل حيواني كالصوف و الحرير أو ذات أصول نباتية كالكتان و القطن.

المواد الخام:

**أ – الصوف:** يعد الصوف أهم مادة خام نسيجية و أقدمها و انفردت بها منطقة الغرب الإسلامي و بأهم انتاج للملابس الصوفية ضمن مجموعة بلدان العالم الإسلامي و في هذا الصدد يشير ابن حوقل (صورة الأرض) بغنم و صوف مدينة عنابة.

**ب- الكتان:** من النباتات النسيجية التي تتطلب تربة خصبة و ماء غزير و تتميز خيوط نسيج الكتان بالدقة و المرونة و الطول و الصلابة لذا تتعدد أغراض استخدامه في صناعة الملابس والحبال المتينة و أول الإشارات الى زراعة الكتان نجدها عند ابن حوقل الذي يشير الى زراعته بمدينة بونة و بجبال أوراس.

2**/ القطن:**

يعود أصل القطن الى بلاد الهند ثم دخلت زراعته الى بلدان العالم الإسلامي في القرن 7 الميلادي عن طريق الفتوحات الإسلامية لبلاد افريقية و انتشرت زراعته في الجهات غزيرة بالمياه ذات التربة الطنية و أشار ابن حوقل الى اهتمام أهل المسيلة بزراعته و كذلك مدينة تونس.

3**/ الحرير:**

ارتبط انتاج الحرير بزراعة شجر التوت و تربية دودة الحرير و نوه ابن حوقل بأهمية مدينة قابس التي يصنع بها الحرير الكثير الغزير أما البكري فكان ادق و اكثر وصفا من سابقه فأمدنا بمعلومات عن شجر التوت الكثير بمدينة قابس.

لكن لا بد لنا أن نشير الى أنه بالرغم من توافر الحرير بمنطقة افريقية إلا أن انتاجه و تسويقه ارتبط بأزياء النساء من ذات المستوى المعيش المرتفع ، حيث تشدد الفقهاء في هذه الفترة بمنع استخدامه في أزياء الرجال اللهم إلا اليسير منه في الاكمام. ولا يعني هذا أن الصناعات الحريرية كانت مجهولة في هذه الفترة بل تعاطاها الحرفيون في جميع المدن الافريقية و إذ كان الإنتاج قد تركز في مدينة قابس و المدن الأخرى المشهورة ، فإن ذلك مرتبطة بأهمية المدن كمركز لاستهلاك الكماليات ، حيث بتواجد و بكثرة كبار التجار و الاعيان و من المعروف أن الاسراف في المليوسات كان منتشرا بين فئات الامراء و الفقهاء و المشهورين وهناك دلائل على كبح هذا الاسراف من قبل بعض الفقهاء المعتدلين.

و استقطبت صناعة الغزل و النسيج عددا كبيرا من الحرفيين و نشأت مع هاتين الحرفتين حرف أخرى تابعة لهما مثل: الحباكة و الصباغة و القصارة و قد خصصت لهذه الحرف الأسواق ، فتشير المصادر الى أسواق الصوافين و التي نسب إليها بعض من احترف مهنة بيع الصوف و كذلك حوانيت القطن و المنسوب إليها بعض تجار القطن ، كما خصصت مجموعة من الحوانيت لبيع الكتان.

و كان هؤلاء الحاكة يجهزون الثياب حسب رغبة الزبائن الذين يأتون بالأثواب ليصنع منها القميص أو بالغزل الذي يريد نسجه حسب رغبته و كثيرا ما كان يخطئ الحاكة في طلبات زبائنهم.

ووقع بعض الحاكة غير المهرة في بعض أخطاء مهنية أثناء تنفيذ صنعتهم و أثارت هذه الأخطاء التي كان يقع فيها مثل هؤلاء الخياطين عديدا من المشاكل بينهم و بين الزبائن.

ورفع عدد من النوازل الخاصة بذلك الى الفقهاء من اجل ايجاد الحلول المثلى التي لا تبخس حق أحد من الطرفين.

لكن على الرغم من ذلك تفنن الخياطون في صنع العديد من الاثواب الجيدة و قام بمساعدة الخياطين في أعمالهم بعض الصبية الذين اطلق عليهم أجراء الخياطين و من المهنيين الذي ارتبطت أعمالهم و مكاسبهم بصناعة الغزل و النسيج القصارون و الصباغون الذين يقصرون و يصبغون الخيوط و المنسوجات و قد أدى هؤلاء العديد من الخدمات التي كان المجتمع في حاجة إليها و يبدو أن مثل هذه الحرف انتعشت على أيدي العبيد.

و كانت الاثواب أغلبها بيضاء يقوم الصباغون بصبغها تبعا لرغبة الزبائن بالاصباغ الحمراء و الصفراء و الخضراء و السوداء و يتم ذلك في قصار مملوء بهذه الأنواع من الاصباغ. و هكذا نرى أن صناعة النسيج قد أفادت بشكل مباشر من توافر المواد الخام الأولية المتوفرة في هذه المنطقة و من تقدم النهضة العلمية لا سيما في المجال الكيميائي في انتاج أنواع من الألبسة ذات ألوان متعددة لم تعرف من قبل.

كما كان الصباغون يخطئون أيضا في تحقيق رغبات الناس لصنع أثوابهم و على أية حال فقد أشاد الجغرافيون بحسن عمل هؤلاء الصباغين و ارتبط صانعو السجاد بصانعي الغزل و النسيج.

وقد أتاح الاستقرار السياسي استغلال المقدرات المحلية في انتاج مصنوعات على درجة عالية من الجودة و الدقة و يعزى ذلك الى اتباع أسلوب التخصص في الإنتاج فاشتهر كل إقليم بمصنوعاته التي تنسب إليه كدليل على الشهرة و منع التدليس.

**2- الرياغون و صناع الأحذية:**

تعددت في المدن المغربية و ملئت بالعمال الذين كانوا يعالجون جلود البقر و الغنم ، حيث يعد الجلد من اهم المنتجات الحيوانية بإفريقية و قد جعل ابن خلدون دباغة الجلود من الصنائع التي بدع فيها المغاربة و قد مثلت العيوب التي كانت تظهر في جلود البقر و الغنم عديدا من المشاكل بالنسبة للدباغين.

وتفنن صناع المنتجات الجلدية في انتاج أجود البضائع المعدة للاستعمال من الأحذية و غيرها فصنعوا النعال و الخفاف.

**3- أصحاب الأرحاء و الطحانون:**

تنوه المصادر عن كثير من الارحاء الخاصة بالطحن حيث كانت توجد فئة الطحانين الذين يقومون بطحن القمح و الشعير للأهالي ، كما كانوا يقومون بالطحن لأصحاب الأفران و يبدو ان الارحاء قد شهدت ازدحاما عليها أيضا لدرجة كان الطحان فيها يخرج الناس عن الرحي لإزدحامهم و نتيجة لذلك نجد النوازل الفقهية لا تخص مسألة تقديم بعض الأهالي على بعض في الطحن بشيء من الاهتمام الكبير ، فقد ذكر الامام سحنون " لا يجب أن يقدم صاحب الرحي أحدا على من أتى قبله".

**4- الخبازون:**

قامت في بلدان المغرب خلال فترة الدراسة أفران مصنوعة من القرميد كان سكان البيوت يرسلون اليها بعجينهم حيث يقوم الخبازون بخبز العجين في الافران او التنور ، فهذا ابوسنان المفتي بالقيروان يحمل خبزه الى الفر ن على يده و لم يكن يقتصر دور هذه الافران على ما كان يدفع غليها من عجين السكان بخبزه ، بل إذ أصحابها كانوا يقومون بتجهيز الخبز و يرفعون به الى الحوانيت لبيعه.

و في بعض الأحيان يقوم الخبازون ببيع الخبز من الفرن مباشرة و قد خضع الخبازون و أصحاب الافران و الحوانيت الخاصة ببيع الخبز لمراقبة المحتسب الذي نهاهم عن الغش و يبدو أن صناعة الخبز قد درت ربحا على أصحابها فاحتفظت لنا المصادر بأسماء أحد الفرانين الخيرين و هو ابوعمرو هاشم بن مسرور المتوفى 307 هـ /919 م صاحب فرن كان مشهورا بالخير الكثير الصدقة يتصدق في السنة بالمال العظيم، و يفك السبايا و يزودهن من ماله و كان إذا عجبه طيب الخبز الخارج من فرنه ،أمر العاملين في الفرن أن يعطوه للفقراء فإذا جاء المشترون قال لهم بعناه ثم يبعث به الى الفقراء فيتصدق به كله.

**5- الدلالون و السماسرة:**

شهدت أسواق المدن المغربية العديد من المشتغلين بحرفة الدلالة و السمسرة ، فقد تجمع الدلالون في مدن المغرب الإسلامية و نصبوا انفسهم لذلك فصاروا لهم حرفة و صناعة معروفين بها لا يغيرونها.

حيث يدفع الناس إليهم بأمتعتهم و سلعهم التي يرغبون في بيعها فيدور بها الدلالون في الشوارع ينادون عليها و يردون الثمن لأصحابها مقابل أجرة معينة تقدر على عدد الامتعة و السلع المباعة و قد عمل بعض اليهود بهذه الحرفة.

**6- الجزارون:**

انتشر الجزارون بالمدن حيث كانت لهم أسواق و حوانيت خاصة بهم و قد وصف بهم التدليس وعدم النظافة و يخلطون اللحم الهزيل بالسمين أو الضأن بالماعز.

و قد خضع الجزارون لمراقبة المحتسب الذي كان يمنعهم من القيام بمثل هذه الأفعال و ينهاهم عنها أشد النهي و إن عادوا إليها يخرجهم السوق.

لذا كان بعض الجزارين عندما يطلع عليهم المحتسب يهربون و يدعون اللحم و يقوم المحتسب بالبيع.

**7- الصرافون:**

كان للصيارفة سوق خاصة بهم في قيسارية المدن الحضارية و كان الصيارفة يبيعون الدنانير والدراهم.

**8- باعة الحلي:**

ازدهرت صياغة المعادن الثمينة و الجواهر فكانت هذه الصناعة تلبية لرغبة التر ف لدى الامراء و كبار الأثرياء و بعض الناس و كان الذهب و الفضة و الجواهر هي الخامات التي تصنع منها مصوغات الزينة فيشتري الصياغ تراب معدن الذهب و تراب معدن الفضة فيصنعون حلي النساء مثل: التاج، و الخواتم و تباع هذه الأشياء بدنانير الذهب نقدا.

و لا شك أن أهل هذه الحرفة كانوا أصحاب خبرات توفرت لديهم نتيجة المعرفة بالكيماء و كان الصياغ يعلمون أبنائهم هذه الحرف فذكر أن رشيق القيرواني بمدينة المحمدية كانت حرفته الصياغة و قد علمها لابنه الحسن من بعده.

كما لم يبتعد الصياغ عن الغش و التدليس ، فيشتري الناس منهم الحلي على أنها طيبة خالصة الذهب فيجدونها مغشوشة مشوبة بالنحاس و الرصاص و ربما تصل نسبة المادة المغشوشة ربع أو ثلث وزن الحلي.

شرائح المجتمع الاندلسي الحرفية

لم تكن الحرف و الصناعات في المجتمع المغاربي مقصورة على فئة اجتماعية معينة دون أخرى و إنما كانت تمارس من جميع الفئات من البربر و العرب و اهل البلاد و الموالي و حتى في المرأة خاصة الاندلسية و فيما يلي لكل من هذه الفئات و لطبيعة الحرف و الصناعات التي مارستها:

**1- العرب:** كان العرب أبعد الناس عن الحرف و الصناعات و السبب في ذلك كما ذكر ابن خلدون ، أنهم أعرق في البداوة و أبعد عن العمران الحضري و ما يدعو إليه من الصناعات وغيرها و لذا سار عرب الاندلس في بداية أمورهم على هذا النهج فلم يهتموا بالحر ف والصناعات و تركوها لغيرهم من فئات المجتمع الاندلسي و اشغلوا أنفسهم بشؤون الحكم و الإدارة ومن تم عمل البعض منهم بالحرف التي تحظى بمكانة اجتماعية رفيعة كالوزارة ، الكتابة عند الملوك وولاية الاقليم و الاشراف على الأسواق (ولاية الحسبة) و تدريس العلوم و نسخ الكتب و تعليم الصبيان في الكتاتيب و إمامة المساجد.

و عندما انخرط العرب في المجتمع الاندلسي مارسوا مختلف أنواع الصناعات و الحرف فقد احترفوا التجارة و الدباغة و الفخارة و الخياطة.

**2- البربر:** فكان أهل القرى و الأرياف منهم يحترفون الفلاحة و تربية الماشية و النحل والدواجن و لذا اشتهروا بإنتاج الصوف ك مادة و العسل و مشتقاته، كما احترفوا صناعة عصر الزيتون و طحن الحبوب و استخراج الملح.

و أما أهل الحاضرة من البربر فقد احترفوا العمل بصناعة السلال ، الاطباق ،...

**3- اليهود:** و كان اليهود الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح يحترفون الحجامة و بيع و إصلاح النعال و خياطة الثياب و صناعة الاقمشة و المنسوجات و عمل بعضهم و سطاء تجاريين وسماسرة.

و أما اليهود من اهل الذمة فقد عملوا في بداية أمرهم بالحرف الممتهنة كالصباغة و الدباغة وكان أكثرهم حمالين و خياطين و قد ازدهرت هذه الطائفة أي اليهود فيما بعد و علت منزلتها في المجتمع و خاصة الاندلسيين فتقلدوا مناصب رفيعة في الدولة كالكتابة عند الملوك و الوزارة وتولى الكثير منهم الشؤون المالية و الإدارية و مارسوا الطب و الترجمة و اشتغلوا بالتجارة والصيرفة والصياغة و يشير أحد الامثال الاندلسية الى أن معظم الصياغة كانوا من اليهود و إذ تعاطى مسلم هذه الحرفة احتقره الناس و ازدروه.

**4- المرأة:** مارست المرأة الاندلسية حرفا متنوعة إذ تجد الطباخة و الخبازة و اللبانة و الطيبة والدلالة و النائحة و المغنية و الكاهنة و المعلمة و صناعة الغزل و النسيج و خاصة غزل الصوف والقطن و الكتان و من المهن الأخرى التي مارستها المرأة خاصة الاندلسية القبالة والتوليد وتربية أولاد العائلات الميسورة و إرضاعهم و خدمة البيوت و الرقص في الحفلات و الاعراس وكتابة المصاحف و قد وردت إشارات في بعض المصادر تؤكد مزاولة المرأة الاندلسية لحرفة الطب.

الوضع الاجتماعي لأهل الحرف و الصناعات

**1/ التسمي بالحرف و الصناعات و الانتساب إليها**

**2/ التسميات بالحرف و الصناعات مثل :** الزجاج ، الصراف ، الغزال ، الخراط، الشواش، الخياط، القطان، الفحام، الكتاب، السكاك.

قد ينسب الشخص الى حرفة أبيه كابن الحذاء ، كابن الرباع، كابن الصائغ و ابن النقاش،....

**3/ التعصب للحرفة و الاعتزاز بها:**

ويلاحظ أن الانتساب للحرف و الصناعات بلغ حد العصبية للحرفة و الاعتزاز بها.

و يبدو أن وضع الصناع بصورة عامة لم يكن جيدا إذ كانت أجورهم قليلة و مستواهم المعيشي متدنيا.